

كتاب الإمتاع و المؤانسة لأبي حيان التوحيدي

1-تقديم:

كان أبو حيان التوحيدي بائسا في حياته وبعد مماته. أما في حياته فقد عاش فقيرا. وأما بعد موته فلم يجد من المؤرخين من يترجم له ترجمة وافية ، وذلك برغم اتساع أفقه وعمق أغوار حتى لا يعد الفيلسوف الأديب المعبر عن ثقافة النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .اسمع هذه الرسالة الحزينة التي يختم بها الجزء الثالث من كتاب الإمتاع والمؤانسة موجهها إياها إلى صديقه أبي الوفاء المهندس الذي كان له فضل تقريبه من الوزير أبي عبد الله الفارض ، وهو الوزير الذي قيلت في حضرته أحاديث السمر الثقافي التي جمعت في كتاب الأمثال والمؤانسة، هذا فهو يقول في رسالته تلك " خلصني أيها الرجل من التكفف أنقذني من لبس الفقر ، اطلقني من قيد الضر ، اشترى بي بالإحسان ، اعتبديني بالشكر ، إلى متى الكسر اليابسة ، والبقيله الداوية و القميص المرقع...اغثني فأني ملهوف".

ولعل أبي الوفاء المهندس قد استجاب إلى استغاثة أبي حيان فأغاثه بان قدمه إلى الوزير أبي عبد الله العارض ، فجعله الوزير من سماره ، و سامره أبو حيان ثمانية و ثلاثين ليلة، هكذا يقول ناشر الكتاب .وبعد ذلك طلب الوفاء من أبي حيان أن يسجل كل ما دار بينه وبين الوزير ، وهكذا فعل أبو حيان فكان له ولنا من هذا الكتاب والمؤانسة.

2-موضوع الكتاب :

يدور السمر المسجل في الإمتاع والمؤانسة على ليال لكل ليلة موضوع رئيسي يحدده الوزير بسؤال يلقيه ولكن سرعان ما يستطرد ويتشعب في تناول أمور كثيرة متنوعة وغالبا ما يختم بملحمة الوداع.

-في الليلة الأولى جري السمر حول متعة الحديث وخصائص الحديث الجيد وكانت خلاصة الرأي المعروف أن الحديث الجيد هو الذي يجري على أحكام العقل ، ويشتمل على فكاهة ، ويكون ذا جدة وطرافة ، وأن الإنسان لا يسأم من كل شيء إلا من الحديث التالي، ففي المحادثة تلقيح للعقول وترويح

للقلب وتسريح لهم وذلك بمناسبة المقارنة بين الحديث الذي يكون فيه جديد والحديث الذي يقتصر على ذكر القديم ، وكذلك تناول أبو حيان بالتحديد معاني هذه الكلمات حادث ، ومحدث ، وحديث وأخيرا ختمت الليلة بملحه الوداع ، وهي نكتة عن بناء بني جدار لرجل ، وبينما هو مختلفان على الأجر سقط الجدار فقال الرجل : للبناء هذا عملك الحسن . فقال البناء: وهل أردت أن يبقى الجدار ألف سنة فأجاب الرجل لا ولكن كان يبقى إلى أن تستوفي أجرتك.

ويدور حديث الليلة الثانية حول شخصيات بارزة يومئذ في ميادين العلم والأدب يصفهم أبو حيان للوزير ويقول رأيهم فيهم فمنهم أبو سليمان المنطقي ، ومنهم ابن زرع ، فطلب منه الوزير أن يحدثه عن آرائه هؤلاء العلماء في النفس ، فاخذ أبو حيان يفصل القول في ذلك ، وختم الليلة أربع أبيات في الغزل.

و في الليلة الثالثة يدور الحديث عن بعض رجال السوء.

وتدور الليلة الرابعة كلها تقريبا على الحديث عن ابن عباد يسأل الوزير أبا حيان عن رأيه في ابن عباد ، وما يقال في ذمة أحيانا ، فيقول أبو حيان " الرجل كثير المحفوظ ، فصيح اللسان ، ويقول عنه انه يمدح نفسه بشعر ثم يعطيه لمن يلقيه كأنما هو شعر قيل فيه من سواه ، فهو محب لنفسه درجة الإسراف ، وهو مزيج من عقل وحمق ، ويأخذ أبو حيان في مقارنته بين العميد ، ويصف ابن عباد بمرض النفس فللنفس أمراض كأمراض البدن.

ومما ورد في الليلة نفسها كذلك ذكر لذكر أعلام العلماء والأدباء ، وما يمتاز فيه كل منهم في الخليل في العروض ، وابن جرير في التفسير ، وأرسطو طاليس في المنطق ، والكندي في الجواهر الفرد ، وابن سيرين في العبارة ، وابو العنين في البديهة ، وابن أبي خالدة في الحظ ، و الجاحظ في الحيوان . ومن اصدق ما جاء في حديث هذه الليلة قول أبي حيان بضرورة التثقيف لمن يتصدى للكتابة الأدبية مع التواضع في تقدير لنفسه قال ليس شيء أنفع شيء من سوء الظن بنفسه ، والرجوع إلى غيره

وإن كان دونه في الدرجة وليس في الدنيا محسوب ليس فيها أحد إلا وهو محتاج إلى تثقيف و المستعين
احزم من المستبد.

وفي الليلة الخامسة عود إلى الحديث عن ابن عباد، ثم الحديث عن ابن عن أبي إسحاق
الصادي أما ابن عباد فقد نجح رغم عيوبه لأن أحدا لا يقول له

وأما الليلة السادسة فحديثها عن خصائص الأمم، فالفرس تقتدي ولا تبتكر، والروم لا
يحسنون إلا البناء والهندسة، والصين أصحاب صنعة لا فكر لها ولا روية، والترك سباع للهراش، والهند
أصحاب. وأما العرب فقد علمتهم العزلة التفكير وساعدتهم بيئتهم على دقة الملاحظة وهم ذو قيم
خلاقية عليا. ومن رأي أبي حيان أن الفضائل موزعة على الأمم وإذا وصفت أمه بفضيلة أو رذيلة فلا
يكون ذلك إلا على سبيل التعميم، ولذلك إذا أردت مقارنة بين أمه وأمه وجب أن يفاضل بين الكامل
في كل منها منهما أو بين الناقص في كل منهما و إن تعصب الإنسان لقومه يجعل من العسير عليه أن
يقول أي الأفضل من سواه

وفي الليلة السابعة مقارنة بديعة بين علم الحساب والبلاغة، أو قل بين العلوم الرياضية وفنون
الأدب أيهما انفع، فقد كان هناك من فضل الأولى على الثانية لان الأولى جد والثانية هزل،

وفي الليلة الثامنة رويت منافسة فلسفية دقيقة وعميقة كانت قد دارت بين أبي سعيد السيرافي
وأبي بشر بن موته بن يونس القنائي، وكان ذلك في حضرة الوزير ابن الفرات، وموضوعها المنطق
اليوناني والنحو العربي، وهي مناقشة وردت كذلك في كتاب آخر لتوحيد هو المقابسات.

وبعد الفراغ من ذكر هذه المناقشة الفلسفية انتقل الحديث في تلك الليلة الثامنة إلى وصف
لشخصيتي أبي سعيد السيرافي وإلى آخرين غيره كأبي علي النحوي، وطائفة من الشعراء

وفي الليلة التاسعة أوصاف دقيقة لصنوف الحيوان ، وما تميز به ، وكيف أن صفات الحيوان موجود مثلها في الإنسان إذ في الإنسان وحده تجتمع صفات الحيوانات كلها ، فهو إذن مختلف عنها لا بالنوع لكن بكثرة ما فيه من صفات تجمعت فيه ، وتفرقت في الحيوان

و في الليلتين العاشرة والحادية عشر قرأ بحث عن خصائص الحيوان منها ما هو متصل بالطباع.

و في الليلة الثالثة عشر قرأ بحث الفلسفة عن النفس ، فهي تعمل بغير عضو خاص من أعضاء البدن ، ولذلك فهي لا تفسد بفساد البدن ، وهي جوهر لا مادي ثم ينتقل الحديث إلى الحركة. أما الليلة الرابعة عشره فتبدأ بمعنى السكينة و أنواعها فهناك سكينة طبيعية وأخرى نفسية ، وثالثه عقلية ، ورابعه إلهية.

وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى ما تشترك فيه الأمم ، وما تختلف فيها من صفات وخصائص. فكلها مشتركة في الفترة الواحدة ، وتأتي بعد ذلك أوجه الاختلاف ، فلا ينال يميزهم الفكر والهند يميزهم الوهم أو الخيال والعرب يميزهم الفصاحة ، والفرس السياسة .

وفي الليلة الخامسة عشر حديث فلسفي عن الممكن والواجب والممتنع ، ثم ينتقل الحديث بعد ذلك إلى نقطة فلسفية هي التفرقة بين العقل والحس.

وفي الليلة السادسة عشرة حديث عن الجبر والقدر تعليق على كتاب العامري المعنون بـ إنقاذ البشر من الجبر والقدر وبهذه الليلة ينتهي الجزء الأول. ن كتاب الإمتاع والمؤانسة. ويبدأ الجزء الثاني بالليلة السابعة عشر ، وهي الليلة التي ورد فيها ذكر إخوان الصفا ، ويقال أن هذا هو النص الأول الوحيد الذي كشف لنا عن أفراد هذه الجماعة التي ألقت رسائل إخوان الصفا.

ويقفز من الليلة السابعة عشر التي أجمعنا حديثها إلى الليلة الثانية والعشرين التي دار الحديث فيها حول موضوع فلسفي عويص هو موضوع الجزء والكل وأدركهما والعلاقة بينهما.

وفي هذه الليلة أيضا حديث عن مشكلة الواحد والكثير وهي مشكلة معروفة في الفلسفة وذات علاقة الكل والجزء ، وفيه أيضا حديث عن أنواع الخطاب :خطاب العاقل، وخطاب العاقل للامق وحديث عن العاده وحديث عن الفقر بمعناها الصحيح،

ونقفز إلى الليلة الخامسة والعشرين التي دار حديثها عن الموازنة بين النظم والنثر، فبعد مقدمة طريفة عن كون الحديث في موضوع النظم و النثر كلاما على كلام ثم روهيت آراء تحبس النضر وتفضله على الشعر فالنثر أصل والنظم فرعه ، والكتب المنزلة منثورة ، والوحدة أظهر في النثر منها في الشعر والنثر طبيعي والشعر صناعي، وترتيب الكلام في النثر لا يحتاج إلى تكلف والنثر من قبل العقل ونجوم السماء منثورة، والأحاديث النبوية نثر، وبعد ذلك رويت آراء في تفضيل الشعر فله صناعة تقتصر على القلة .أما النثر ففي وسع الجميع والنظم صالح للغناء والحداء ، وشواهد النحو واللغة لا توجد إلا في الشعر والشعراء هم الذين ظفروا بجوائز الخلفاء ، ثم تختتم المحاور برأي المعتدل فلكل من النثر والنظم فضائله ولكل منهما بلاغة.